في محكمة الجنايات

زرتُ اليوم مكاناً لعلهُ ارهب الامكنة بعد مسارح الجرائم الخفية ومواضع تنفيذ الإعدام، اعني القاعة الكبرى في محكمة الجنايات حيث يُصدر العدلُ البشريُّ اشدّ احكامهِ على من يكون في عرفهِ مجرماً. ذهبتُ الى تلك القاعة حيث تنعقد المحكمة العسكرية لمحاكمة المتهمين بانهم من اعضاء «جمعية الانتقام» المتآمرة على خلع السلطان، وقتل الوزراء، وقلب الحكومة والتحريض على الثورة في البلاد. ما ارهب هذه الكلمات التي تصوّر للمخيلة مشاهد الظلم والفتك والدماء والدمار! ومن مميزات الحركة النسائية الجديدة ان النساء المصريات امتزجن بالحياة العامة فصرن يظهرن في كل اجتماع قوميّ، حتى وفي احرج المواقف واوجعها للقلوب الوطنية. كذلك حضرت فئة منهن جلسات المحكمة بالتتابع

دخلتُ الدهليز الواسع بين الجنود المتعصبين بتةً ويسرةً وخلالهم يختلط المحامون باصحاب القضايا ويناقشونهم باصوات خافتة على رغم منهم. فتلقاني جنديّ حاجب قدّمتُ لهُ تذكرة الدخول فاوصلني الى آخر، وسار بي هذا الى ثالث وانا اعدّ الازرار الذهبية المنضدة على كتف كلٍّ منهم والتظاهر بعدم الاكتراث لأُسكت دقات قلبي. وما كان حتى رأيتُ ضابطاً ينحني امامي وهو يفتح باباً لم اسمع لهُ ما يُشبهُ الصوت. فوجدتني بغتةً في قاعةٍ متوسطة الاتساع قد تبلغ مساحتها العشرين متراً طولاً في عشرة امتار عرضاً، وبدلاً من ان اخطو وراء الجندي الذي سار ليدلني على مكاني ظللتُ واقفةً وأنا في إجمالي اتفرّس في الوجوه المستوية في صدر القاعة وقد اشرأبّت نحوي جميعاً. غير ان الذي تكفّل بايصالي عاد اليّ ثم مشى يهديني حتى اجلسني على المقعد الرابع وعلى مقربة مني «قفص» المتهمين

أجميعُ الحضور يحدّقون فيّ ام أنا في هلوعي اظنهم قاعلين؟ رفعت بصري اتبيّن الامر في سيماء القضاة اولاً فاذا بهم يرقبونني وقد ادركوا في سرهم جزعي واضطرابي. وهل من نظر ينفذ الى اعماق النفس ويعرّيها من استارها كنظر القاضي؟ ربما كان هناك شخص واحد يفوقهُ براعةً وهو الكاهن الكاثوليكي الذي

يكسبهُ تعاطي الاعتراف واستماع شكايات الناس حنكةً ودرية ومعرفة باسرار النفوس لا يماثلهُ فيها من الصاعنين غير من شقت بصيرتهُ بانوار الالهام

لم اجرأ على النظر الى المتهمين ، وشعرت بان اسلم النظرات عاقبة واضمنها براءة هي نظرة اصعد بها الى سقف المكان مستوضحةً هندستهُ وزخرفهُ

زخرف محكمة الجنايات ، ما هذا الجنون !

نعم هناك زخرف وتنميق وهو عبارة عن خط عريض تقش بالنقوش الحجرية البيضاء ودار حول سقف القاعة في اعالي جدرانها الكلسية الجرداء ، وقطعت خطوط اخرى من نوعهِ السقف ثلاثاً بالعرض فانالتهُ شكلاً مربعاً . ثم هبطت عيناي الى الحوائط وفي احدها القائم شمالاً شبابيك كبيرة واسعة رُفعت الاستار الكتانية الى اوجها فتدفق خلالها نور النهار الداخل من الحديقة الفاصلة بين هذه القاعة وبين الشارع حيث يسير الناس احراراً غير مقيدين . ولما فرغتُ من تفحص الحائط والنوافذ والستائر واستنزفتُ عليها كلّ ما جال في دماغي من ملاحظةٍ ومناقشة وتعليق مشى بصري قليلا قليلاً الى صدر الغرفة حيث استوت هيئة القضاء لتحكم بقسطاس العدل

اين ذهب اضطرابي حتى واجهت نظر القضاة بهدوء هذه المرة ، وبي شعور يشبه الراحة والطمأنينة ؟ فمدّات جلوسي واستعدادي العقلي لأضع الاشياء في مواضعها

هيئة المحكمة تتألف من قضاة عسكريين اربعة يلحق بهم المترجم ، ورئيسهم قائد تبدو مرتبتهُ في الاشرطة الحمراء المذهبة على كتفيهِ وكميهِ وفي صفي الاشرطة الملوّنة الصغيرة الممتدين على صدره واحداً فوق الآخر ليدلاّ على ما عندهُ من مختلف المؤاليات والاوسمة . ويترسط الهيئة « نائب الاحكام » وهو قاضٍ في المحاكم المختلطة واحد كبار رجال القانون الانجليزي وهو وحدهُ بين القضاة يلبس الشعر العارية الابيض والرداء الاسود . والى اليمين كرسي المدعي العمومي او « مدعي الملك » كما يسمونهُ في هذه القضية ، وهو كنائب الاحكام يلبس الشعر الابيض والرداء الاسود . وامام المحكمة مكان المحامين فموقف الشهود تتناسق متتابعة وراءهُ مقاعد القاعة التي اجلس انا في صفها الرابع والى يميني قفص المتهمين الذي تنتهي حدودهُ من الجهة الاخرى قرب هيئة المحكمة

اي المواقف اغرب من موقف المتهم ازاء القاضي ؟ واي كره قسري بين هؤلاء الاثنين ، بين شخص ضعيف اعزل تحت رحمة الآخر وبين هذا الآخر الذي وُجد ليفسّر الحركات والمعاني ويتصرّف كيفما شاء بمصلحة المتهم وراحته وحياته ! اي عداء واي اختلاف اعظم من هذا ؟ ومع ذلك فالاثنان معرّضان معاً لجميع نواميس الطبيعة واهوائها . فلو تساقط الثلج الآن لانتفضا معاً . ولو زلزلت الارض زلزالها وفغرت فاها لالتهمتهما معاً . ولو انتشر مكروب خبيث لتناولهما معاً ولتألم كلٌّ على حدة بمثل ما يتألم الآخر . بل هاهم جميعاً قد كفّت ادمغتهم واغمضوا عيونهم ، وفي كلٍّ منهم احتياج يظهر حتى في تصلب جلوسه ، احتياج الى ان يتثاءب ويتمطى كما يفعل الاسد او كما يفعل كل من يشعر بالسآمة والضجر . وعندما تخرج كلمة هزلية من فم المحامي او القاضي او الشاهد تلمع عيونهم جميعاً ويشتركون في الضحك . ولئن بعث القضاة الى المتهمين بنظرة نافذة مستفسرة باردة كالسلاح الابيض حيناً بعد حين فلواحظ هؤلاء تخال باسمة في الغالب

نعم ، في جميع عيون المتهمين ابتسام ، وهيئة القاعة عموماً بسيطة ليس فيها ما كنتُ اتوقعهُ من مظاهر العبوس والغم . كانها مكتب لاي عمل من الاعمال التجارية مثلاً . وبينا المدعي العمومي يتابع شكايتهُ مستطرداً في الاتهام فيأتي بالحجة بعد الحجة ، وبالاثبات تلو الاثبات ، اذا بالمتهمين لاهون عن اقوالهِ بما بين ايديهم من جرائد ومجلّات يقلبون صفحاتها ، ثم يتحادثون كأنهم يتبادلون الآراء في الموضوع الذي يقرأونهُ ولا علاقة لهُ بالمحاكمة اصلاً . ثم يرتسم الحزن في سواد عيونهم وتبرز على جباههم احكام نفسها لهم القدَرُ في كتابهِ النحاميّ فيتأملون قليلاً ويتنهدون . الا ان اجتماعهم إجمالاً يشبه اي اجتماع مدرسيّ جديّ . اقول « مدرسي » لانهم من طلبة المدارس العليا فهذا كان يدرس الطب ، وذاك القانون ، والآخر من طلبة الازهر ، وغيرهُ من مدرسة القضاء الشرعي وهيئة « التلمذة » عليهم جميعاً الأُعبد الرحمن بك فهي الواقف في مدخل الممرّ الى القفص وعليهِ ملامح الحكّام

حسن بزّهم يشير الى درجتهم الاجتماعية ، وفي عيونهم ترقص أنوار الحياة ،

وعلى شفاههم يبسم رونق النضارة، وفي ذقون بعضهم تلك الطبعة الجاذبة التي يحسبها أهل الفراسة علامة الحب الشديد ورمزاً الى ان في صاحبها احتياجاً للشعور بان له من يعزه ويحنو عليه، وان حرمة شقي شقاء لا يدركه غير أمثاله. فكيف يحتمل هؤلاء حياة السجن وراء الابواب المقفلة وفي عناء الاشغال الشاقة، وكيف يحتملون القيود والاغلال وكل ما هيأه المجتمع من نظام ولباس يحول بأس الجاني الى سخرية ظاهرة؟ وأي التوسلات ستنطلق من هذه الافئدة واي الدموع ستلهب هذه المحاجر؟

تلاشى فجأة ما يحيط بي واتسع القفص وأضيفت اليه جميع الاقفاص في جميع محاكم العالم وقد حشر فيها الالوف والملايين ورأيت في عيون الجناة صور جناياتهم، وفي عيون الابرياء صور براءتهم، وفي جميع العيون أشباح الخوف والفزع. ثم انهدمت جدران القاعة وارتدت حدودها الى ما وراء جميع المحاكم في الماضي والحاضر والمستقبل، وصار القضاة الخمسة الوفاً وملايين ونظراتهم النافذة المستقرة الباردة كالسلاح الابيض تتجه نحو العيون المذعورة. وحكمت الاحكام على العبيد وعلى الملوك، على المظلومين وعلى الظالمين، وتراءت لي السجون بضخومها، والاشغال الشاقة بذلها، وآلات التعذيب بهولها. وبدت امامي وجوه الجرائم والفظائع والشرور فتقطعت أوصال احساسي. وفي هذه الفرقة التي كانت تبسم منذ هنيهة سمعت صلصلة السلاسل وقعقعة القيود ولمحت احكام الاعدام تنفذ على لابسي البذلة القرمزية السائرين نحو المشانق عراة الاقدام

ما هذه الضوضاء التي تخرج بي من هذا الكابوس الفكري؟ أكل هذه جلبة الحبال في الاعناق؟ كلا. بل حانت ساعة الانصراف ورفعت الجلسة وانفرط المجتمعون وها هم يخرجون الى الدهليز الوسيع المؤدي الى الشارع. وهناك عند العامود الضخم المنتصب امام المحكمة رفع أحد المتهمين نظره الى افريز العامود الاعلى ثم اداره سريعاً الى الارض وارسل زفرة محرقة. فنظرت الى الافريز الاعلى واذا بطائرين قد وقفا جنباً الى جنب ينشدان نشودة الحياة والحب والحرية!

(يتبع)